

ا.د.سعاد هادي حسن الطائي  
تاريخ العصر العباسي المتأخر  
المرحلة الرابعة

عنوان المحاضرة :السلطان الب أرسلان  
السلجوقي ودوره السياسي والعسكري

حين مات طغرل بك ، لم يكن له ابن يرث العرش ، فبرزت مشكلة ولاية السلطنة بعد وفاته ، و  
اصبحت مثار التنافس بين افراد البيت السلجوقي. و كان اخوه جغرى توفي قبله في عام 451هـ  
، تاركاً عدداً كبيراً من الابناء كان اكبرهم الب أرسلان الذي خلف اباه في حكم خراسان و ما  
وراء النهر ، و كان على حكمها حين مات عمه سنة 455هـ ، وكان طبيعياً ان يعتبر الب  
أرسلان نفسه احق افراد البيت السلجوقي بعرش السلطنة ، كما كان له وزير قوي النفوذ عظيم  
الكفاية هو ابو علي حسن ابن علي بن اسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك، و كان هذا الوزير  
واسع الطموح ، يرغب في ان يكون وزيراً لسلطان السلاجقة ، فشجع الب أرسلان على طموحه  
و زكى رغبته في عرش السلطنة. و كان طغرل تزوج بأرملة اخيه جغرى بعد موته ، و لها  
ابن يسمى سليمان ، فأستطاعت ان تؤثر على السلطان حتى اختار ابنها ولياً للعهد برغم من  
صغر سنه ، و نفذ وزير طغرل بك ابو نصر الكندري وصية مولاه فأجلس سليمان على عرش  
السلطنة بمدينة الري و امر ان تقرأ الخطبة بأسمه.

لم يقبل الب أرسلان سلطنة اخيه الاصغر ، فصمم على السير الى الري ، و لقي تصميمه هذا هولا في نفوس كثير من افراد البيت السلجوقي فأختاروا جانبه ، بل ان بعضهم نادى به سلطاناً و خطبوا له في بحر قزوين بأسم عضد الدولة الب أرسلان محمد بن داود بن جغرى بك ، و خشى الكندري مغبة الامر ، فأنضم الى الب أرسلان و امر بأن تقرأ الخطبة بأسمه في الري و بأن يكون سليمان ولياً لعهدده . و بذلك استتب الامر للسلطان الب أرسلان في ذي الحجة سنة 455هـ و اعترف به رئيساً للبيت السلجوقي و سلطاناً على السلاجقة .

لكن اميراً سلجوقياً آخر رأى انه احق بالسلطنة هو "قتلش" بن عم جغرى بك و سار الى الري بقواته و استولى عليها و اعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة . فأسرع الب أرسلان و معه وزيره نظام الملك الى الري على رأس جيش كبير ، و التحم مع قتلش في معركة طاحنة بالقرب من مدينة الري و انتهت بانتصار الب أرسلان و قتل قتلش ، و دخل الب أرسلان الري في عام 456هـ ، و بذلك انتهت مشكلة السلطنة و استتب الامر لألب أرسلان دون منازع.

و في الوقت الذي كان الصراع يجري فيه بين افراد البيت السلجوقي على تولي عرش السلطنة ، كان صراع آخر يحتدم على الوزارة ، بين نظام الملك الذي لم يشأ ان يبقى الى جانبه من ينافس ، و بين الكندري وزير طغرلبيك الذي اراد ان يحتفظ بمركزه ، و على الرغم من ان الكندري تقرب الى نظام الملك و اكد ولاءه للسلطان الجديد ، فأن نظام الملك خوف السلطان من الكندري حتى حمله على القبض عليه و سجنه في مدينة نسا ، ثم امر بقتله.

و قد نجح نظام الملك في التخلص من منافسه ، ولكنه استن بذلك سنة سيئة في عصر السلاجقة ، ادى العمل بها الى قتل عدد كبير من وزراء السلاجقة ، و قد اکتوى بها نظام الملك نفسه ، و تحقق ما قاله الكندري لقاتله منبهاً لخطر هذه السابقة "قل لنظام الملك : بنسما عودت الاتراك قتل الوزراء و اصحاب الديوان ، و من حفر قليلاً وقع فيه".

و على أي حال فإن مشكلتي العرش و الوزارة حلتا ، ثم اخذت اوضاع السلاجقة تستقر في بداية عام 457هـ ، وبدأ الب أرسلان يسير في بناء الدولة قدماً على الاساس الذي ارساه طغرلبيك في ايران و العراق، و يرسم الاهداف التي يسعى الى تحقيقها.

كان الب أرسلان قائداً ماهراً ، كما كان وزيره نظام الملك سياسياً محنكاً بعيد النظر ، فرسما خطة العمل على الاساس العسكري و السياسي معاً ، و ذلك بأن يدعم سيطرة السلاجقة على العالم الاسلامي بالاتجاه الى التوسع، في بلاد الارمن و بلاد الروم.

وبينما كان الب أرسلان يستعد لتحويل نشاطه نحو هذا الاتجاه ، فوجئ بما جعله يعدل خطته و يؤجل اعماله الخارجية الى حين ، وذلك بقيام عمه "بيغو" امير هراة بتمرد ضده، و الذي عز عليه ان يكون تابعاً لابن اخيه ، فاعلن العصيان و حاول الاستقلال بالمناطق الخاضعة لحكمه ؛ فأدرك الب أرسلان ان عليه اولاً ان يثبت اركان حكمه في جميع اجزاء دولته ، بتأديب المتمردين ، و اقرار هيبة السلطان في كل انحاء الدولة ، حتى يتجه الى اهدافه الخارجية و هو مطمئن الى جبهته الداخلية.

فقاتل عمه "بيغو" و الحق به هزيمة في سنة 457هـ . جعلته يتعهد بعدها بتقديم الطاعة له ، و انتهب الب أرسلان فرصة وجوده في هذه البلاد ؛ فقام بالقضاء على معظم التمردات، و اعاد الامن الى نصابه في جميع انحاء خراسان و ما وراء النهر ، ثم رجع الى مدينة نيسابور . ثم اخذ بعد ذلك يتفقد اجزاء دولته المترامية الاطراف ، و قد استغرقت هذه الجولة نحو خمسة سنوات ، اقر فيها الامن في كل البلاد. و عقد حلفا مع الدولة الغزنوية في غزنة و الهند ، و الدولة الخانية في بلاد ما وراء النهر ، وربطهما برابط المصاهرة مع البيت السلجوقي ؛ فزوج السلطان ابنه ملكشاه بأبنة خاقان ملك ما وراء النهر ، و زوج ابنة أرسلان شاه بأبنة صاحب غزنة ، و بذلك ارتبطت الدول الثلاث برابط المصاهرة . و اتفقت الكلمة ، فأنصرف السلطان الى تحقيق اهدافه الكبرى ، و قرر ان يبدأ بفرض سيطرته على بلاد الارمن وجورجيا و الاجزاء المجاورة لها من بلاد الروم ؛ لانها كانت المنافذ التي تطل على ممتلكات الدولة البيزنطية..

و في مدة قصيرة تمكن الب أرسلان – بعد ان تجاوز اذربيجان – من الاستيلاء على الجزء الاكبر من البلاد الواقعة بين بحيرتي وان و اورومية ، كما فتح جورجيا و بلاد الارمن ، و بسقوط مدينة "آن عاصمة ارمينية القديمة و هي الحصن الذي وقى الامبراطورية البيزنطية شر الغزوات الشرقية ، انفتح المجال امام القوات السلجوقية لتوجيه الضربات للروم والتوسع في اسيا الصغرى حتى وصلت الى عمورية في مقاطعة فرجينيا، بعد ان ضربت كبادوكيا كلها. و اغضبت فتوحات الب أرسلان امبراطور الروم "رومانوس ديوجينيس الذي قاد في حماس بالغ الى ميدان القتال كل رجل استطاع ان يجنده من الولايات الاوروبية و الآسيوية ، و ظل ثلاث سنوات متوالية محاولاً ضرب القوات السلجوقية بدون جدوى ، ثم قصد سورية لضرب القوات الاسلامية ، و فعلاً الحق الهزيمة بقوات امير حلب الذي كان يدين بالولاء للفاطميين ، و لكنه لم يستطع تحقيق نصر دائم و اضطر الى التراجع.

و اتاحت اعمال امبراطور الروم في الشام للسلطان الب أرسلان الفرصة لتحقيق هدف آخر من اهداف السلاجقة و هو القضاء على الخلافة الفاطمية في الشام تمهيداً للقضاء عليها في مصر ، فأرسل جيشاً بقيادة ابنه ملكشاه لفتح بلاد الشام ، و حين شعر امير حلب بقدوم الجيش السلجوقي خلع طاعة الفاطميين و انضم للسلاجقة و خطب للخليفة العباسي، و بذلك اتقى خطر السلاجقة. كما تمكن ملكشاه من الاستيلاء على جزء كبير من بلاد الشام ، و وضع يده على بيت المقدس عام 463هـ / 1070م ثم حاصر دمشق ، غير انه لم يتمكن من فتحها في ذلك الوقت . و نجح السلاجقة في تأمين الجيش السلجوقي الرئيسي الزاحف الى بلاد الروم.

و ادرك الامبراطور ما يرمي اليه السلاجقة فقام بحركة مضادة ، فقد جمع جيشاً جراراً يضم الروم و الفرنسيين و البلغار و اليونانيين و الجورجيين ،، و توغل شرقاً حتى عسكر عند "ملاذ كرد Mansikret الواقعة على الحد الارمن بالقرب من مدينة "خلاط" . و بعد مناوشات مع مقدمة الجيش الرومي ادرك السلطان انه من الصعب عليه ان يقاتل مثل هذا الجيش ، و بخاصة و انه لم يستطع ان يجمع قواته التي كانت مبعثرة ، ففضل ان يطلب الصلح، و ان يؤجل ما عزم عليه من غزو بلاد الروم حتى يكمل استعداداه . و لكن امبراطور الروم و كان معتداً بقوته و متلهفاً على ضرب السلاجقة ، رد على رسول السلطان بأن الصلح لا يتم الا في الري عاصمة السلاجقة.



انزعج السلطان من محاولة الامبراطور في فرض رايه عليه و في حماسة بالغة من كلا الطرفين التحم الجيشان في معركة عاصفة انتهت بسحق الجيش الرومي؛ و وقع رومانوس نفسه اسيراً ي ايدي السلاجقة . و حمل الى السلطان، وعامله بكل احترام، و قبل ان يفندي نفسه عقد معه معاهدة مدتها خمسون عاماً ، تعهد فيها امبراطور الروم بدفع الجزية للسلاجقة ، و بأن يرسل الى السلطان عساكر الروم حين يطلبها ، و بأن يطلق له كل اسير من المسلمين في بلاد الروم.

و حين عاد الامبراطور الى بلاده لقي مصيراً مؤلماً ، فقد وثب "جون دو كاس " على السلطة ، و قبض على الامبراطور المهزوم و عذبه و سمله فمات بعد ايام قليلة ، و لكن خلفه لم يستطع الا ان يقر المعاهدة التي وقعها مع الب أرسلان . و بذلك صرف الروم نظرهم نهائياً عن آسيا الصغرى.

كانت موقعة ملاذ كرد سنة 463هـ / 1071م نقطة تحول في التاريخ الاسلامي بصفة عامة ، و تاريخ منطقة غرب اسيا بصفة خاصة. فأما في التاريخ الاسلامي ، فإن السلاجقة قد واصلوا كفاح العرب ضد الروم ، و قد كان الروم يحرصون على وضع ايديهم على بلاد الارمن و ما جاورها و يعتبرونها القنطرة بين الغرب و الشرق ، مما جعل هذه البلاد ميدان صراع بين الفرس و الروم قبل الاسلام ، ثم حاول المسلمون وضع ايديهم عليها و بسط نفوذهم فيها بكل السبل ، لكن النفوذ الرومي بقى قوياً طاغياً ، حتى كانت موقعة ملاذ كرد هذه فأخذ النفوذ الرومي ينحسر شيئاً فشيئاً حتى زال تماماً . ثم ان انحسار الروم عن هذه المنطقة ادى الى تدخل قوى اخرى فيما بعد هي القوى الاوروبية ، ثم ان انحسار الروم عن هذه المنطقة ادى من الناحية الحضارية الى انتشار الحضارة الاسلامية في هذه البلاد نظمها و آدابها و جميع مظاهرها.

اما السلطان الب أرسلان فإنه لم يعيش طويلاً بعد انتصاره في ملاذ كرد ، فقد قتل بعد عام و بضعة اشهر، على يد احد الثائرين في المشرق . و ذلك انه بعد ان فرغ من قتال الروم توجه الى المشرق لقمع فتنة قام بها الخانيون ، و عبر نهر جيحون في اوائل عام 465هـ / 1072م و هاجم احدى القلاع الثائرة و استولى عليها. و لما قبض على قائدها و كان يسمى يوسف الخوارزمي اراد السلطان ان يقتله بنفسه لشدة عناده، و لكن هذا هاجمه بسكين كان يخفيها و طعنه طعنة نافذة مات منها بعد ايام و دفن بمدينة مرو بعد حكم دام تسعة اعوام و نصف تقريباً .